﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨﴾ [الأعراف: 138]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

نجاةُ بني إسرائيلَ وهلاكُ أعدائِهم، وطلبُهم اتّخاذَ إلهٍ شريكٍ، بمجرّدِ مُجاوَزةِ البحرِ

تَذكرُ هذه الآيةُ الكريمةُ وما بعدَها ما أحدثَه بنو إسرائيلَ مِنَ الأمورِ الشَّنيعةِ بعدَ أن مَنَّ اللّهُ عليهم بالنِّعَمِ الجِسام، وأراهُم مِنَ الآياتِ العِظَام[1]، بأنْ أهلَكَ عدوَّهُم، وأورثَهم أرضَهم وديارَهم؛ أتبعَ ذلك بالنِّعْمَة العظمى، وهي أن جاوزَ بهم البَحْرَ مع السَّلَامة[2]، وهي شروعٌ في قصَّةِ موسى ﷺ مع قَومِهِ معطوفةً على قصَّتِهِ مع فرعونَ وقومِه على أكملِ وجوهِ العِبْرةِ، مع السَّلَامةِ من لغوِ القَصَصِ والتَّاريخ[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾: (جوز) أصلان: أحدهما قطعُ الشَّيءِ، وجُزْتُ الموضِعَ، والمكان: سِرْتُ فِيهِ، وأَجَزْتُه: خَلَّفْتُه، وقَطَعْتُه، وأَنْفَذْتُه[4]، وجاوزَه جوازًا، بالكسرِ: سارَ فيه وسلَكه[5]، وَتجَاوَزَ بهم الطَّرِيقَ، وجاوزه جوازًا، وجاوزَ به: خَلَّفَهُ[6]، وهو عُبُورٌ، أو نفاذٌ من طَرَفٍ إلى طَرَفٍ، والطَّريقُ إذا قَطَعْتَهُ من أحد جانبَيهِ إلى الآخرِ، وسلوكُ الطريق نفاذٌ فيه، ومنه جاوزْتُ الموضعَ بمعنى: جُزْتُهُ، وبِهِ فُسِّرَتِ

(1) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/32.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/181.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 9/91.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (جوز).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (جوز).
(6) ابن سيده، المحكم، والزبيدي، تاج العروس: (جوز).

الآيةُ الكريمةُ، وكلُّ ما في القرآنِ منَ التَّرْكِيْبِ؛ فهو من هذا الجوازِ[1]، وقيل: المعنى: قَطَعْناهُ بِهم، وجُزْناهُ[2]، وتخطَّيناه[3]. ويبدو - واللّه أعلمُ - أنَّ معاني: خَلَّفْناهُم، وجُزنَاه بهم، وقطعْناهُ بهم، أنْفذْناهُم منه، وتخَطَّينَاه كلُّها محتَمِلَةٌ، ومرادةٌ.

2) ﴿يَعْكُفُونَ﴾: (عكف) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على مقابلةٍ وحَبْسٍ[4]، يقالُ: عَكَفَ يَعْكِفُ ويَعْكُفُ عكْفًا وعُكُوفًا: بإقبالِكَ على الشَّيءِ، لا تصرفُ عنه وجهَكَ[5]. والاعتكافُ في الشَّرع: هو الاحتِباسُ وملازمةُ المسجدِ على سبيل القُربةِ، والعكوفُ: الملازَمةُ بنيَّةِ العِبَادَة[6]، وهو إقبالُكَ على الشَّيء والإكبابُ عليه وملازمتُه؛ مواظِبًا لا تصرِفُ عنه وجهَكَ إلى غيرِهِ على سبيل التَّعظيم لَه[7]، وكذلك معناهُ في الآيةِ الكريمة[8].

3) ﴿أَصْنَامٍ﴾: (صنم) كلمةٌ واحدة لا فرعَ لها، وهي الصَّنَم، وهو الشَّيءُ يُتَّخذُ من خشبٍ أو فضَّةٍ أو نحاسٍ فيُعبَدُ[9] باتِّخاذهِ إلهًا من دونِ اللّهِ تعالى، وقيل: هو ما كانَ لَهُ جِسمٌ أو صورةٌ، فإن لم يكن لهُ جِسمٌ أو صورةٌ؛ فهو وَثَنٌ، وسيأتي تفصيلُ الفَرْقِ بينهما في الفروقِ المعجميَّة - إن شاءَ اللّهُ[10] - ، أو كانوا يعبدونهُ متقرِّبين بهِ إلى اللّهِ تعالى، وجمعُه: أصنامٌ، وقيل: كلُّ ما عُبِدَ مِن دونِ اللّهِ، بل كلُّ ما يَشْغلُ عن اللّهِ تعالى يقالُ له: صنمٌ[11]. فالصَّنَم: ما اتُّخِذ إلهًا من دونِ اللّهِ، يُنْحَت من خَشَبٍ، وغيره، ويُصاغُ من فضَّةٍ ونحاس، فلعلَّهُ سُمِّي كذلك لمّا تَوهَّم فيه عابدوهُ مِن قوًى خفيَّةٍ ليس لها ظواهرُ تدلُّ عليها[12].

وهو في الآيةِ الكريمةِ ما اتَّخذه القومُ لهم مِن تماثيلَ للبقر بحسبِ ما وردَ في كُتب التَّفسيرِ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جوز).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/447.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/172.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عكف).
(5) الخليل، العين: (عكف).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/80.
(7) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عكف).
(8) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/447، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/600.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صنم).
(10) ابن الأثير، النّهاية: (صنم).
(11) الرّاغب، المفردات: (صنم).
(12) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صنم).

4) ﴿تَجْهَلُونَ﴾: (جهل) أصلان: أحدُهما خلافُ العِلم، ونقيضُه[1]. وعُدَّ الجَهْلُ ضِدَّ العلم؛ لأنَّ الجَاهِلَ خالي الذِّهنِ مِنَ المعلومات[2]. وخلاصةُ معنى الجَهْلِ ثلاثةُ أضرُبٍ: الأوَّل: وهو خلوُّ النَّفسِ مِنَ العلم، هذا هو الأصلُ. والثاني: اعتقادُ الشَّيء بخلاف ما هو عليه. والثالث: فعلُ الشَّيء بخلافِ ما حقُّه أن يفعلَ، سواءٌ اعتقدَ فيه اعتقادًا صحيحًا أو فاسدًا، كمن يتركُ الصَّلَاةَ متعمِّدًا، والأكثرُ في القرآن أن يُذكرَ على سبيل الذَّمِّ[3]. وكلُّ هذه المعاني محتَمِلَةٌ في لفظ ﴿تَجْهَلُونَ﴾ في الآية الكريمة.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مُجاوَزةُ موسَى وقومِه البحْرَ، وطلبُهم معبودًا على شاكلةِ عَبَدةِ الأصنامِ الّذين لاقَوْهُم

والمعنى: وقطعْنا ببني إسرائيلَ البَحْرَ بعدَ الآياتِ الَّتي أريناهموها، والعِبَرِ التي عاينوها على يدَي نبيِّ اللّه موسى، فلم تزجرْهم تلك الآياتُ، ولم تعظْهم تلك العِبَرُ والبيِّنات؛ حتى قالوا بعد أن مرُّوا بقومٍ يُقيمون، ويُواظبون على عبادةِ أصنامٍ لهم: اجعلْ لنا مثالًا نعبدُه، وصنمًا نتَّخِذُه إلهًا، كما لهؤلاء القوم أصنامٌ يعبدونها. فأنكرَ موسى ﷺ ذلك عليهم، ونعتَهم بجهْلِهم عظَمَةَ اللّهِ، ووجوبَ حقِّهِ عليهم، وأنَّكم لا تعلمون أنَّ العبادةَ لا تنبغي إلَّا للّهِ الواحد الأحد[4].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ مَنْ لم يُخْلِصْ قلبَهُ لحقائقِ التَّوحيد تتوقُ نفسُه لنَبْذِ عوالقِ الشِّركِ، والرِّيبة[5]. وفيها تسليةٌ لرسولِ اللّهِ ﷺ وإيقاظٌ للمؤمنين حتَّى لا يغفُلوا عن محاسبةِ أنفسِهم ومراقبةِ أحوالِهم[6]. ويُؤخَذُ مِنَ الآيةِ أنَّ تغييرَ المنكر خاصٌّ بمن أُرسِلَ إليه

(1) الخليل، العين، ومقاييس اللّغة: (جهل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جهل).
(3) الرّاغب، المفردات: (جهل).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 13/80.
(5) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/562.
(6) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/32، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/267.

المُغيِّر؛ لأنَّ موسى ﷺ لم يغيِّرْ قومَه بالقوَّة[1]. وتهدي أيضًا إلى أنَّ من خِسَّةِ العقول، وانحطاطِ مستوى تفكيرِها عَدَّ القبيحِ حَسنًا، واتِّخاذَ المظاهرِ المزيَّفة قُدْوةً، فتنخَلِعُ عن كمالها في اتِّباع نقائِصِ غيرها[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ العُدولِ بالفعْلِ (جازَ) إلى (جاوَزَ):

صِيغةُ المفاعَلةِ (وجاوزنا)، كانتْ تعظيمًا لِما كان من مُعجزةِ فَرْقِ البَحْرِ

الفعلُ (جَاوَزَ) في ﴿وَجَٰوَزْنَا﴾ بمعنى: جَازَ، فَاعَلَ، بمعنى: فَعَلَ[3]، وساقَهُ على طريقِ المفاعلةِ؛ تعظيمًا له[4]، بزيادةِ الألفِ، وذلك مبالغةٌ لِما كان من معجزةِ فَرْقِ البَحْرِ، بارتفاع بعضِ أراضيهِ لعبورِهم، وانخسافِ مائِه، وغَرَقِ فرْعونَ وقومِه فيه[5]، وهو من باب (فَاعَل) بمعنى (فَعَّل)؛ لأن أصل (فَعَّل) إنَّما يقتضي تكليفَ الفعل؛ وصعوبتَهُ[6].

دَلالةُ (الباءِ)، في قولِه: ﴿بِبَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

تَـنـوُّعُ معنَى الـجُـمـلـةِ بين الـحـالـيَّـةِ والـتَّـعْـدِيـةِ، دليـلُ أهـمّـيّـةِ حرفِ المعنَى في السّياقِ

الفعلُ (جاوز) متعدٍّ إلى واحدٍ بنفسِه، وإلى المفعول الثاني بالباء، فإذا قلتَ: جِزْتُ به، فأصلُ معناهُ: أنَّك جزتَهُ مصاحِبًا في الجَوازِ به للمجرور بالباء ﴿بِبَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، فالباءُ حاليَّةٌ، والمعنى: جاوزنا البَحْرَ مُلتبِسًا ببني إسرائيلَ، أو جاوزناهُ، وهم فيه، ثم استُعيرَتِ الباء للتَّعدية، يقال: جُزْتُ به الطَّريقَ؛ إذا سهَّلتَ له ذلك، وإن لم تَسِرْ معه، فهو بمعنى: أجزتَه، ويكونُ التقدير: جاوزناهم البَحْرَ، بأن جعلناهُ يَبَسًا لهم، وحفِظناهم حتى بلغوا الشَّطَّ، أي: قدَّرنا لهم جوازَه، ويسَّرناهُ لهم[7].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/247.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/81.
(3) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/442.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/103.
(5) قباوة، المفصّل، ص: 594.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/247.
(7) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 1/349: 5/441، 1/349، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/267، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/79 - 80.

دَلالةُ ضَميرِ التَّعْظيمِ في قولِه: ﴿وَجَٰوَزْنَا﴾:

منْحُ النّاجينَ شَرَفَ المعيَّةِ الرَّبّانيّةِ، إشارةٌ إلى إحاطَتِهم بالعِنايةِ الإلهيّةِ

في قوله: ﴿وَجَٰوَزْنَا﴾ يُحدِّثُ اللهُ ﷻ عن نفسِه بضميرِ المتكلِّم العظيم، فيُبيِّنُ لنا أنَّه كان مُصاحبًا بني إسرائيلَ بمعيَّتِه العظيمةِ الجليلَةِ، حين أمَرهم بعبورِ البَحْرِ حتى جعلَهم يجاوزونَ مكانَ الفَلَقِ مِنَ البَحْر، ويصلون إلى البَرِّ بعيدًا عن ساحِلِه، وهذا الإسنادُ منهُ ﷻ صيَّر السَّيرَ محفوفًا بالعناية، والحفظِ، والمعونةِ الإلهيَّة، وهذا التَّعْبيرُ البديعُ دلَّ على أنَّ اللهَ ﷻ منحَ بني إسرائيلَ - بقيادةِ موسى ووزيره هارون ﷺ حين عبورِ الطَّريقِ في البَحْر - شرفَ المعيَّةِ الرَّبَّانيَّةِ لهم، مُعْتَنِيًا بهم، وحافظًا لهم، ومُعِينًا. وكان تثبيتُ اللهِ لنبيِّهِ الكريم سابقًا هذا الحدثَ، بعد أن قال أصحابُ موسى - حينَ رأى كلٌّ واحدٍ من الفريقين الآخرَ -: إنَّ جَمْعَ فرعونَ مُدْرِكُنا ومُهلِكُنا، فردَّ عليهم نبيُّ اللهِ بثقةٍ واطمئنانٍ وثبات: كَلَّا ليس الأمرُ كما ذكرْتُم فلن تُدْرَكوا؛ إنَّ معيَ ربِّي بالنَّصرِ والمعونة والتَّأييد، سيهديني لما فيهِ نجاتي ونجاتِكم: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: 62].

وَجْهُ القراءةِ بالتَّشْديدِ، في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا﴾:

اللّفظُ هنا مِنَ التَّجْويزِ المرادِفِ للمُجاوَزةِ، وهو من فَصيحِ الألفاظِ

قُرِئَ في الشّاذّ: (وجَوّزنا) بالتَّشديد، وهو مِمَّا جاءَ فِيهِ (فَعَّلَ) بِمَعْنى (فَعَلَ) المُجَرَّدِ، نَحْوُ: قَدَّرَ وقَدَرَ، وليس التَّضعيفُ للتعدية[1].

وهو من التَّجويزِ المرادفِ للمجاوزةِ لا ممَّا هو بمعنى التَّنفيذِ، وإلَّا لقيل: وجوَّزنا بني إسرائيلَ في البَحْرِ، ولخلا النَّظمُ الكريمُ عن الإيذانِ بانفصالهم عنِ البَحْر، وبمقارنةِ العنايةِ الإلهيَّةِ لهم عند الجَوازِ كما هو المشهورُ في الفرقِ بين أذهبَهُ، وذهَبَ بِهِ[2].

(1) وهي قراءة الحسن، وإبراهيم وأبي رجاء ويعقوب، يُنظر: أبو حيَّان، البَحر المحيط: 4/376، والسّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/442.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/267.

دَلالةُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾:

المـرادُ بالبحرِ، بحرُ القُلْزُم، وهـو الاسـمُ الَّذي أُطلقَ على البحرِ الأحمرِ قديمًا

و﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾ هو المرادُ باليمِّ في الآية السّابقة: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾، فالتَّعْرِيفُ للعهدِ الحضوريِّ، أي: البَحْرُ المذكورُ، كما هو شأنُ المعرفةِ؛ إذا أُعيدَت معرفةً، واختلافُ اللَّفظِ تفنُّنٌ، وتجنُّبٌ للإعادةِ، والمعنى: أنَّهم قطعوا البَحْرَ، وهو بحرُ القُلْزُم، وهو الاسم الَّذي كان يُطلَقُ على البحرِ الأحمرِ قديمًا، وخرجوا على شاطئِهِ الشَّرقيِّ[1].

نُكتةُ العُدولِ مِن لفْظِ (اليمِّ)، إلى لفْظِ ﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾:

تَنويعُ الألفاظِ لونٌ منَ التّفنّنِ، مع دَلالةِ (البَحْرِ) على النَّجاةِ، و(اليمِّ)، على العُقوبةِ

عدَلَ السِّياقُ إلى لفظِ ﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾، بدلًا مِنَ (اليَمِّ)؛ تفنُّنًا في العبارةِ، وسبقتِ الإشارةُ إلى اقتران لفظ ﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾ ببني إسرائيلَ؛ لكونه ممَّا يُعَبَّرُ بهِ عَن مواطنِ النِّعَمِ، والخيرات، والنَّجاةِ، واقترانِ لفظُ (اليَمّ) بآلِ فرعون لمصاحَبَتِهِ معنى الانتقامِ، والعقاب، والخوف.

سِرُّ العطْفِ على أوَّلِ القِصَّةِ:

القَصصُ بيانٌ، وفي النَّاسِ منْ لا تُغنِيهِ الآياتُ، ولا تَـردَعُـه البيّناتُ

قال عاطفًا على قَوْله: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾، أو قَوْله: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ﴾ [الأعراف: 103]، وإنَّما جعله السّياقُ معطوفًا على أوَّل القِصَّةِ؛ لأنَّ هذه القصصَ كُلَّها بيانٌ، وفي النَّاس السَّيِّئُ الجَوهرِ الّذي لا تغنيه الآياتُ[2].

دَلالةُ تعْدِيةِ فعْلِ الإتيانِ بـ﴿عَلَىٰ﴾، على طريقِ التَّضْمينِ:

الإتيـانُ المـرورُ على القومِ دونَ الإقامةِ عندَهم، وهـو مُستعمَلٌ بدَقّةٍ في السِّياقِ

الفاءُ في: ﴿فَأَتَوۡاْ﴾ عاطفةٌ للتَّرتيب، والتَّعقيبِ، ولمَّا ضُمِّن ﴿فَأَتَوۡاْ﴾ معنى (مرُّوا) عُدِّيَ بـ﴿عَلَىٰ﴾ المفيدةِ للاستعلاءِ المجازيِّ؛ لأنَّهم لم يقصدوا الإقامةَ في القومِ، ولكنَّهم ألْفَوْهُم في طريقِهم، والقومُ: هم الكنعانيُّون، ويقال لهم عند العربِ: العمالقةُ، ويُعرَفون عند متأخِّري المؤرِّخين بالفينيقيِّين[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/80.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/103.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/103، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/80.

تَعْدِيةُ فعلِ العُكوفِ بـ﴿عَلَىٰ﴾ على طريقِ التَّضْمِين:

تعديةُ العكوفِ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ الدالِّ على الاستعلاء المجازيِّ؛ لما فيه من معنى النُّزول، وتمكُّنه كقَوْله: ﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ﴾ [طه: 91][1]، وكأنَّ المعنى منكبُّون عليها، مواظبون على عبادتها.

العُكوفُ فيهِ شَيءٌ من معنَى النُّزولِ، والانْكِبابِ على أصْنامِهم

سِرُّ التَّعْبِير بالمُضَارِع ﴿يَعْكُفُونَ﴾:

عبَّر عن فعل الاعتكاف بالمُضَارِع الدَّالِّ على اتِّصافهم بالفعل في الحال، وتجدُّده فيهم، وأخلصَ النَّكِرةَ ﴿قَوْمٍ﴾ من محضِ التَّنْكِيرِ الوصفُ بالجُمْلَة الفعليَّةِ ﴿يَعْكُفُونَ﴾ الدالُّ على استمرارهم عليه، وفي ذلك من الإيضاح بعد الإبهامِ ما ليس في التَّعْرِيف بالإضافة.

اتِّصافُهم بالفِعْلِ في الحالِ، معَ مَلْمَحِ تجدُّدِ الإقامةِ حولَ أصنامِهم

نُكْتةُ تنكيرِ لفْظِ ﴿أَصْنَامٍ﴾:

اختِيرَ طريقُ التَّنْكِيرِ في﴿أَصْنَامٍ﴾، ووُصِفَتْ بأنَّها ﴿لَّهُمْ﴾، أي: (للقوم) دونَ طريق الإضافة؛ ليُتَوسَّل به إلى إرادةِ تحقيرِ الأصْنَام، وأنَّها مجهولةٌ؛ لأنَّ التَّنْكِيرَ يستلزمُ خَفاءَ المعرفة[2].

أهمّيّةُ دَلالةِ هذا اللّفظِ، بأنّ الأصْنَامَ المنكَّرةَ، مُبتذَلةٌ مُحقَّرةٌ

سِرُّ وصْفِ الأصْنَامِ بأنَّها ﴿لَّهُمْ﴾:

إنَّما وُصِفَتِ الأصْنَامُ بأنَّها﴿لَّهُمْ﴾، ولم يقتصِر على قَوْلِه: ﴿أَصْنَامٍ﴾؛ لزيادة التَّشنيعِ بهم والتَّنبيهِ على جَهلِهم وغَوايتهم في أنَّهم يعبدونَ ما هو مُلْكٌ لهم، فيجعلونَ مملوكَهُمْ إلهَهُم[3].

زيادةُ التَّشنيعِ بهم، والتَّنبيهِ على جَهْلِهم وغَوايتِهم

عِلَّةُ العُدولِ إلى الفصْلِ، في ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى﴾:

لما أخبرَ سبحانه بنجاتِهم، ومجاوزتِهم البَحْرَ؛ عَلِمَ السَّامعُ أنَّهم بين أمرين: إمَّا شُكْرٌ، وإمَّا كُفْرٌ، فتشوَّفَ إلى ما كان منهم في حال الرَّخاءِ هل شكروا؟ فأجابَ اللّه سؤالَه بقَوْله: ﴿قَالُواْ﴾، أي: لم يلْبَثْ ذِكْرُهُمْ لمّا أراهم سبحانه من عظمتِه، وشكْرُهُمْ لمّا

تَشوُّفُ النَّفْسِ إلى معرفةِ فِعْلِهم حالَ الرَّخاءِ، وأنّهم أشركُوا وما شكَرُوا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/80.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/80.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/247، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/80.

أفاضَ عليهم من نعمتِه إلَّا رَيْثما أَمِنُوا من عدوِّهم بمجاوزَتِهم البَحْرَ، حتَّى طلبوا إلهًا غيرَهُ بقَوْلهم: ﴿يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾[1]. ولمَّا كانت العبارة افتتاحَ مُحاورة، والشّأنُ أنْ تكونَ جُملُها مفصولةً شاعَ فصْلُها. ففُصِلَتْ أيضًا، ولم تُعْطَفْ بالفاء؛ ولو عُطِفت، لجازَ أيضًا[2].

بَراعةُ تَوظيفِ النِّداءِ ﴿يَٰمُوسَى﴾ في الخِطابِ:

النِّداءُ فيه طَلَبٌ لـلإصْـغـاءِ لما يقولونَه، إظهارًا لرغْبَتِهم فيما سيطلُبونَ

وندواؤهم نبيَّهم بقَوْلِهم: ﴿يَٰمُوسَى﴾ مع أنَّه معهم مستعملٌ في طلب الإصغاء لما يقولونَه؛ إظهارًا لرغبَتِهم فيما سيطلبون[3]. ووُظِّفَ النِّداءُ بوصفِه دُعاءً برفعِ الصَّوتِ، غايتُهُ أنْ يُصغيَ من يُنادَى إلى أمرٍ ذي بالٍ، فيُستثارُ بحرف النِّداء، ويُحرَّك، ويُنبَّهُ؛ توكيدًا، ومبالغةً، فإذا أُلقي إليه الكلامُ؛ كان مُستعِدًّا لتَقَبُّلِه.

التَّصْريحُ بالمنادَى ﴿يَٰمُوسَى﴾، جَفاءٌ وغِلْظةٌ، وقلَّةُ تأدُّبٍ:

مُـراعـاةُ الـقـرآنِ لمقتضَى الواقعِ، جـعَـلَ الألـفـاظَ عـاكـسـةً للمَوْطِن

وسَمُّوْهُ باسْمِهِ جفاءً وغِلْظَةً؛ اعتمادًا على ما عمَّهُمْ من برِّهِ وحِلْمِهِ غيرَ متأدِّبينَ بما بَهَرَهُمْ من جلالةِ حظِّهِ مِنَ اللهِ[4]، فدعَوه كما ينادي بعضُهم بعضًا، فلم يقولوا له: يا نبيَّ اللهِ، أو: يا كليمَ اللهِ.

بَلاغةُ التَّشْبيهِ في قَوْلِه: ﴿كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾:

حَـضُّـهُـمْ مـوسَى عـلى الاستجابةِ لهم، وانْتِهاجُهُمْ بما رأَوْا مِـنَ القَوْمِ الَّـذيـن حَـلُّـوا بينَهُم

والتَّشبيهُ في قَوْله: ﴿كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ أرادوا به حضَّ موسى عليه السلام على إجابةِ سؤالِهم، وتحقيقِ مطلبهم، والابتهاجَ بما رأوا من حال القومِ الَّذين حلُّوا بين ظهرانَيْهم، وهم منقطِعون إلى ما يعبدون مِن أصنامٍ، وكفى بهم خِسَّةَ عُقُولٍ عَدُّهم القبيحَ حَسَنًا، واتِّخاذُهم المظاهرَ المُزيَّنَة قُدْوَةً، وانخلاعُهم عن كَمالهم في اتِّباع نقائص

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/104.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/81.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/81.
(4) البقاعي، نظم الدُّرَر: 3/104.

غيرهم[1]! ويجوز أنْ تكونَ الكافُ اسمًا في محلِّ نصبٍ صفةً لإلهٍ، أي: إلهًا مُماثِلًا لإلهِهم[2].

دَلالةُ تعدُّدِ وُجوهِ احْتمالاتِ إعرابِ (ما)، في قوله: ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾:

التّنوُّعُ في المعاني، والسّعةُ في الدّلالاتِ، مَلْمحٌ يُميّزُ بيانَ الآياتِ

احتمالاتُ توجيهِ (ما): أن تكونَ كافَّةً لكافِ التَّشبيه عنِ العملِ؛ فإنَّها حرفُ جرٍّ، ولذلك وقعت الجُمْلَةُ بعدَها[3]، والتَّقدير: كآلهتِهم، ويجوز أن تكونَ مصدريَّةً، أي: كما ثبتَ لهم آلهةٌ، فآلهةٌ فاعل بـ(ثبت) المقدَّرِ، ويجوز أن تكونَ موصولةً، وفي قَوْلهم: ﴿لَّهُمْ﴾ ضميرٌ يعودُ إليه، و﴿ءَالِهَةٌ﴾ بدلٌ مِن ذلك الضَّميرِ، تقديرهُ: كالذي هو لهم آلهةٌ[4].

نُكتةُ العُدولِ إلى الفصْلِ:

الاستئنافُ تَشوُّفٌ إلى ردِّ موسَى المتَّصِفِ بالشِّدَّةِ، والغِلْظةِ؛ مُناسبةً لحالِهم

ولمّا كان قَوْلهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، قولَ مَن لا يَعُدُّ الإلهَ الّذي فعلَ معهم هذه الأفاعيلَ شيئًا، ولا يستحضرهُ بوجهٍ، ولما كان هذا منهم عظيمًا؛ استأنفَ جوابَ مَن تشوَّف إلى قولِ موسى عليه السلام لهم ما هم، بقَوْله: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[5]. وفُصِلت، ولم تُوصَل لوقوعِها في جوابِ المحاورة، أي: أجابَ موسى كلامَهم، وكان جوابُه متَّصِفًا بالشِّدَّة والغلظة؛ لأنَّ ذلك هو المناسبُ لحالهم[6].

سِرُّ التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ ﴿تَجْهَلُونَ﴾:

الإشعارُ بأنَّ الجهلَ منهم كالطَّبعِ والغريزةِ، يُعْرَفُون به، ولا ينفكُّ عنهم

جاءَ بالفعلِ ﴿تَجْهَلُونَ﴾ مضارعًا، ولم يقل: (جهلتم)؛ إشعارًا بأنَّ ذلك منهم كالطَّبع والغريزةِ، لا ينتقلون عنه في ماضٍ ولا حاضرٍ، ولا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/81.
(2) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/4424.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/150.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/182، وأبو حيّان، البَحْر المحيط: 4/377، والسّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/4424 - 43.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/104.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/81.

مستقبلٍ، فهي خَلَّةٌ متجدِّدةٌ فيهم[1]. والمُضَارِع ﴿تَجْهَلُونَ﴾ في محلِّ رفعٍ صفةٌ لقومٍ، وهو خبرٌ موطِّئٌ للصِّفةِ يفيدُ المبالغةَ، والتَّوكيدَ[2].

سِرُّ الوَصْفِ بالجَهْلِ المُطْلَقِ، على طريقِ التَّوكيدِ بـ(إنَّ):

تـوجَّـهَ الـذَّمُّ عـلـيـهـم، لِـمـا أبْـــدَوْا مـنَ السّفهِ الذّميمِ، والجهلِ العميمِ

وتوجَّهَ الذَّمُّ عليهم؛ لأنَّ العِبَادَة نهايةُ التَّعْظيمِ سواءٌ اعتُقِد في المعبودِ أنَّه إلهٌ، أو اعتُقِد فيه أنَّه مقرَّبٌ مِن اللهِ، ونهايةُ التَّعظيمِ لا تليقُ إلَّا بمن يَصْدرُ عنه نهايةُ الإنعامِ، ولهذا قالَ لهم موسى عليه السلام: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[3]؛ مُتَعجِّبًا مِن قَوْلهم، وموبِّخًا إيَّاهم على أثرِ ما رأوا من الآيةِ العظمى والمعجزةِ الكبرى، فوصفَهم بالجَهْلِ المطلقِ وأكَّدَه بـ"إنَّ"؛ لأنَّه لا جهلَ أعظمُ ممَّا رأى منهم، ولا أشنع[4]. فقد بَعُدَ صنيعُهُم عن العقلِ، فلا يوجدُ أشْنَع ممَّا فعلوه، بعد ما رأَوا من الآياتِ الكبرى[5]، ولذلك فهمْ قومٌ ملأَ الجَهْلُ قلوبَهم، وغطَّى على عقُولِهم، فصاروا لا يُفرِّقون بين ما عليه هؤلاءِ من ضَلالٍ مُبينٍ، وبين ما تستحقُّه الألوهيَّةُ من صفاتٍ وتعظيمٍ[6].

فائِدةُ التَّعْبيرِ بالجُمْلَةِ الاسميَّةِ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾:

تَرسيخُ جهْلِهِم المُطْلقِ، بكونه صفةً ثابتةً في نفُوسِهم

كان وصفُ موسى عليه السلام إيَّاهم بالجَهَالة ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، مؤكَّدًا بالجُمْلَةِ الاسميَّة، ولفظةِ (إنَّ)، وصيغةِ المُضَارِع، المفيدةِ للاستمرار التَّجدُّدي؛ ترسيخًا لمطلق جهالتِهم بتحقيقِ كونِ الجَهَالةِ صفةً ثابتةً فيهم، وراسخةً من نفوسِهم، ولولا ذلك؛ لكان لهم في بادئِ النَّظر زاجرٌ عن مثل هذا السُّؤال، ورادعٌ عن التَّفكير فيه بَلْهَ طَلَبِهِ، وفيه تَشْديدٌ في العتابِ[7].

(1) أبو حيَّان، البَحر المحيط: 4/377، والبقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/104.
(2) قباوة، المفصّل، ص: 595.
(3) النيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/310.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/150، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/377، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/366.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/32.
(6) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/366.
(7) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/489، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/81.

دَلالةُ صِيغةِ الإخبارِ عنِ الجَهْلِ، بين التَّصْريحِ والكِنايةِ:

الانْدِهاشُ من قَوْلِهم وفِعْلِهم، والتَّعجُّبُ من فداحةِ جَهْلِهم

الخبرُ في ﴿تَجْهَلُونَ﴾ مستعملٌ في معنييهِ: الصَّريحِ اندهاشًا مِن قَوْلهم الذي يدلُّ على جهلِهم بمعنى عدمِ معرفتهم، أو قصورِ علْمِهم. والكنايةِ، مكنًّى به عن التَّعجُّب من فداحةِ جَهلِهم[1]. الذي يصلُ إلى حدِّ الحماقةِ التي هي ضدُّ العقلِ، فما ينبعثُ مثلُ هذا القولِ إلا من الجَهَالةِ والحُمقِ إلى أبعدِ الحدود، الَّذي يتناول فَقْدَ العلم، وسَفَهَ النَّفسِ، وفسادَ العقل، وسوءَ التَّقدير[2].

سِرُّ الالتفاتِ منَ الغَيبةِ إلى الخطابِ:

خصَّصَ الجَهلَ بالقومِ العاكفين على الأصْنَامِ، واستثْنَى قومَه منه

التفتَ من الغيبةِ في: ﴿قَالَ﴾ إلى الخطاب في: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ لأنَّ المُخبَرَ عنهم هم المُخاطَبون، وفي ذلك زجرٌ، وتوجيه[3]. وفيه قصدٌ معنويٌّ أبلغ – واللّه أعلم – وهو أنَّ في عدم الالتفات، أي: التَّعْبِيْرُ بالغَيبة: (إنهم قوم يجهلون) تَخصيصًا للجَهْل بالقومِ العاكفين على الأصْنَام، واستثناءً لقومهِ مِنَ الجَهْل، وكأنَّ المعنى – واللّه أعلم –: إنَّهم قومٌ يجهلون، فلا تكونوا مثلَهم، وهو تعبيرٌ لا يناسب سَفَهَ مطلبِهم، وفداحةَ صنيعِهم.

دَلالةُ التَّعْبِيرِ بلفظِ ﴿قَوْمٌ﴾:

التَّنبيهُ على أنَّ وصْفَهُم بالجَهَالةِ كالمُتَحَقِّقِ المعلومِ الداخل

في الإتيانِ بلفظ ﴿قَوْمٌ﴾ وجعْلِ ما هو مقصودٌ بالإخبارِ وصفًا لقومٍ، تنبيهٌ على أنَّ وصْفَهُم بالجَهَالةِ كالمُتَحَقِّقِ المعلومِ الداخل في تقويم قوميَّتهم؛ لأنَّ الخبرَ لظهورِ أمرهِ وقيامِ الدَّليل عليهِ، كأنَّه معلومٌ مُتَحقِّقٌ، فيفيدُ تأكيدَه وتقريرَهُ، ولولاه لم يكن لتوسيطِ الموصوفِ وجهٌ من البلاغة[4]. ولذلك كان إسنادُ الجَهْلِ إلى القومِ أبلغَ من إسنادهِ إلى ضميرِ المخاطَبين[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/81.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/366.
(3) قباوة، المفصّل، ص: 595.
(4) الشهاب، عناية القاضي: 4/359، والآلوسي، روح المعاني: 9/41، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/81.
(5) محمد رضا، تفسير المنار: 9/97.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿قَوۡمٌ﴾:

الحُكْمُ بالجَهَالةِ على القومِ كلِّهم، تأكيدٌ للتّعجُّبِ مِن حالِهم

وتنكيرُ ﴿قَوۡمٌ﴾ حكمٌ بالجَهَالة على القوم كلِّهم، وفيه تأكيدٌ للتعجُّب مِن حالِ جَهالتِهم، وعمومِها فيهم، بحيثُ لا يُوجَدُ فيهم مَن يشذُّ عن هذا الوصفِ مع كثرتِهم، ولأجل هذه الغرابةِ أكَّد الحكمَ بـ(إنَّ)؛ لأنَّ شأنَهُ أنْ يتردَّدَ في ثبوتهِ السَّامعُ[1]، وهذا يدفعُ ما ذهبَ إليه بعضُ المفسِّرين من أنَّ طلبَ جعلِ الآلهةِ لم يصدرْ مِن مشاهيرِ بني إسرائيلَ وعظمائِهم كالسَّبعين المختارين، ولكنَّه صَدرَ عن عوامِّهم وجهلتِهم[2].

بَلاغةُ الحذْفِ لمفعولِ ﴿تَجۡهَلُونَ﴾، وتنزيلُ الفعْلِ مَنزلةَ اللَّازمِ:

يَدلُّ الحذْفُ على العُمومِ، ولِوضْفِهم بالجَهْلِ على أتمِّ صُورةٍ

لمّا تعجَّب ﷺ مِن قَوْلهم هذا بعد ما شاهدوهُ مِنَ الآيةِ الكبرى والبيِّنة العظمى، وغَضِبَ ﷺ غضبةَ رسولِ ربِّ العالمين، لربِّ العالمين غَيْرةً على ألوهيَّته أن يُشْرِكَ بها قومُه؛ وصفَهم بالجَهْلِ على أتمِّ وجْهٍ، حيثُ لم يذكرْ لهُ متعلَّقًا ومفعولًا، فلم يقُلْ: تجهلون ماذا؟ لتنزيلِهِ منزلةَ اللَّازمِ، أو لأنَّ حذْفَهُ يدلُّ على عمومِه، أي: تجهلونَ كلَّ شيءٍ، فيدخلُ فيهِ الجَهْلُ بالرُّبوبيَّةِ بالطَّريق الأولى[3].

وليشيرَ إلى أنَّ العلمَ والتَّعقُّل يقودُ كلاهُما إلى اللهِ الواحدِ، وأنَّه ما مِن عِلْمٍ ولا عَقْلٍ يقودُ إلى غيرِ هذا الطَّريق.

سِرُّ العُدولِ عن لفْظِ (لَا تَعلَمُونَ) إلى ﴿تَجۡهَلُونَ﴾:

بيانُ الفرقِ بين عدَمِ العلْمِ بالشَّيءِ، وبين الجَهْلِ بالشَّيء

لم يَقُلْ لهم: (لَا تَعلَمُونَ)، بل قال: ﴿تَجۡهَلُونَ﴾؛ لأنَّ هناك فارقًا بين عدمِ العلم بالشَّيء، وبين الجَهْلِ بالشَّيء، فعدمُ العلْمِ، يعني: أنَّ الذِّهن قد يكونُ خاليًا من أيِّ قَضيَّةٍ، أمَّا (الجَهْل)؛ فهو يعني: أن تعلم مناقضًا للقَضيَّةِ، إذًا فهناك قَضيَّةٌ يعتقدُها الجاهلُ، ولكنَّها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/81.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 3/310.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/41.

غيرُ واقعيَّةٍ، أمَّا الَّذي لا يعلمُ، فليسَ في ذهنِهِ قَضِيَّةٌ، وحين تأتي له القَضِيَّةُ يقتنعُ بها، ولا يحتاجُ ذلك إلى عمليَّةٍ عقليَّةٍ واحدةٍ، مثل الأُمِّي مثلًا الذي لا يعلمُ؛ لأنَّ ذهنَهُ خَالٍ مِن قَضِيَّةٍ، أمَّا الذي يعلمُ قَضِيَّةً مخالِفَةً؛ فهو يحتاجُ مِنَ الرَّسولِ إلى عمليَّتَينِ عقليَّتين: الأولى: أن يُخرِجَ ما في نفسِه من قَضِيَّةِ الجَهْلِ، والثَّانية: أن يُعطيَ له القَضِيَّةَ الجديدةَ. إنَّ الذي يُرهِقُ العالمَ همُ الجُهَلاءُ لا الأمِّيُّون؛ لأنَّ الأمِّيَّ حين تُخْبِرُهُ بمعلومةٍ؛ فليس عندَهُ ما يُناقِضُها، لكنَّ الجاهِلَ عندَهُ ما يُناقِضُها ويخالِفُ الواقِعَ[1].

وُصِفُوا بالجَهْلِ، ولم يُوصَفُوا بالشِّركِ، لِسَفاهةِ أحلامِهم، وقلّةِ وعْيِهم بالحقائقِ

حقيقةُ شَكِّ بني إسرائيلَ، بوَحدانيَّةِ اللهِ الجليلِ:

ذهبَ البغويُّ إلى أنَّ طلبَ بني إسرائيلَ لم يكن شَكًّا منهم في وحدانيَّةِ اللهِ تعالى وإنَّما معناه: (اجعلْ لنا شيئًا نعظِّمُهُ، ونتقرَّبُ إلى اللهِ بتعظيمِه)، وظنُّوا أنَّ ذلك لا يضرُّ الدِّيانةَ، وكان ذلك لخِفَّةِ عقْلِهم وشِدَّةِ جَهْلِهم؛ ولذلك وصفَهم موسى عليه السلام بالجَهْلِ تعجُّبًا من قَوْلِهم على إثرِ ما رأوا مِنَ الآياتِ[2]. ولم يصِفْهم بالشِّرك، وبدأ حَشْدَ عباراتِ العِظَةِ والهدايةِ والإرشادِ، والتَّذكيرِ بعظيمِ فضلِ اللهِ عليهم - فيما سيأتي من آياتٍ مباركاتٍ - بما أوتيَ مِن بلاغةِ الأنبياءِ، وحُسْنِ أدبِهم، وذلكم أسلوبُ الحوارِ مع الجَاهلِ بخلاف أسلوبِ خِطابِ المُشْرِك، ومُجادَلتِه.

سِرُّ تعاقُبِ القَصَصِ القُرآنيِّ في السّورةِ:

ليستِ القَصصُ للتَّكريرِ، فإنَّ كلَّ سياقٍ منها لمشْهدٍ لم يَسْبِقْ ذكرُهُ من قبلُ

إنَّ سياقَ كلِّ قصةٍ هو لأمرٍ لم يَسْبِقْ مثلُهُ، فلا تكريرَ في هذه القصصِ، والمقصودُ مِن قصَّةِ موسى عليه السلام وفرعونَ هذا الاستدلالُ الوجوديُّ على قَوْلِه: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: 102]. فبعدَ الخلاصِ مِن عدوِّهم، بيَّنَ السّياق الحكيم إسراعَهم في

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4330.

(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/274، والظهريّ، التّفسير المظهريّ: 3/401.

الكُفْرِ، ونقضَهُم للعُهودِ، واستمرَّ سبحانه في هذا الاستدلالِ إلى آخرِ السُّوْرَةِ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصَّنَمُ، والتِّمثالُ، والوَثَنُ:

التِّمثالُ مُقيَّدٌ بالعِبَادَةِ والزِّينةِ، والصَّنَمُ مُخصَّصٌ بما له جِسمٌ وصورةٌ، والوَثَنُ أعمُّ

التِّمثالُ لا بدَّ أن يكون مثالًا لشيءٍ، وأنَّه قد يكون للعبادةِ، وحينئذٍ يسمَّى صنمًا، وقد يكون للزِّينة، كالذي نراه على جدرانِ بعض القصورِ المشيدةِ أو أبوابها أو في حدائقِها، وقد يكون للتَّعظيم والتكريم غيرِ الديني كالتَّماثيل التي تُنصَبُ لبعض الزُّعماء، والشَّخصيَّات[2].

والصَّنَمُ: هو ما كانَ له جِسْمٌ أو صورةٌ، فإن لم يكن له جِسْمٌ أو صورةٌ، فهو وَثَنٌ[3]، وقيل: إنَّ الصَّنَمَ هو المعمولُ مِنَ الخَشَبِ، أو الذَّهَبِ، والفِضَّةِ أو غيرِها مِن جواهرِ الأرضِ، أمَّا الوَثَنُ؛ فهو المصنوعُ مِنَ الحِجارةِ، وقيل: ما كان له جِسْمٌ أو صورةٌ فصَنَمٌ، فإن لم يكن له جِسْمٌ أو صورةٌ؛ فهوَ وَثَنٌ، وقد يُطلَقُ الوَثَنُ على الصَّليبِ، وعلى كلِّ ما يَشْغَلُ عنِ اللهِ تعالى[4]، وقيل غيرُ ذلك. وقيل: إنَّ الصَّنَم مصوَّرٌ، فهذا أدْعَى إلى توهُّم سرٍّ فيه، كما أنَّ اعتبارَ اللَّفظ المصاقبِ للصَّنم، وهو السَّنامُ، يُرجِّحُ أنه جثَّةٌ منصوبةٌ، أمَّا الوَثَنُ؛ فإنَّ احتواءَ الكلمةِ على الفصلِ المعبِّرِ عنِ التَّكْثيرِ يرجِّحُ أنَّ المُعتَبَرَ فيه أنَّه شريكٌ، أو ثانٍ (أي: تعدُّدُ المعبودِ) تعالى اللهُ عن ذلكَ. فمَلْحظُ الوَثَنِ أنَّه شَريكٌ، ومَلْحَظُ الصَّنَمِ أنَّهُ جثَّةٌ مصوَّرةٌ منصوبةٌ، وبهِ يكونُ الوَثَنُ أعمَّ من الصَّنَم[5]. وبذا يكون اختيارُ لفظِ الصَّنَمِ أنسبَ لسياقِ الآيةِ الكريمة؛ لكونهِ يُناسبُ - ما حُكِي - أنَّها كانت تماثيلَ بقرٍ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/104.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/92.
(3) ابن الأثير، النهاية: (صنم).
(4) الزّبيدي، تاج العروس: (صنم).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صنم).

جعلَ، وخلقَ، وصنعَ، وعمِلَ، وفعلَ، وأنشأَ:

الجَعْلُ: تَغْييرٌ بإيجادِ الْأَثَرِ في الشَّيء، وبِغَيْر ذَلِك، أَلا ترى أَنَّك تَقول: جعلَ الطِّينَ خزفًا، وَجعلَ السَّاكِنَ متحرِّكًا، وَتقول: عَمِلَ الطِّينَ خزفًا، وَلَا تَقول: عَمِلَ السَّاكِنَ متحرِّكًا؛ لِأَنَّ الْحَرَكَةَ لَيست بأثرٍ يُؤثِّر بِهِ في الشَّيء، والجَعْلُ أَيْضًا يكون بِمَعْنى الإحداث[1] والتَّوجُّهِ والشُّرُوعِ في الشَّيء والاشتغالِ بِهِ، وتَبَيِّن في شرح المعنى اللُّغوي للَّفظة أَنَّ تَصَرُّفَها في القرآنِ ورد بمعنى: التَّحويلِ والتَّهْيئةِ على وَضْعٍ، أو التَّحويلِ للهيئةِ بإنشاء هَيْئَةٍ جَديدة، فهو إيجادٌ يتأتَّى منه النَّصْبُ (الإقامة)[2].

الجَعْلُ لفظٌ عامٌّ في الأفعالِ كلِّها، وهو إيجادٌ، أو تغييرٌ، مصحوبٌ بأثَرٍ أو بغيرِه

يُستَعْمَل الخَلْقُ في إبداعِ الشَّيء من غيرِ أصلٍ ولا احتذاء، أي: من غيرِ مثالٍ سابقٍ، ولا يكون إلَّا للّٰهِ تعالى وأمَّا الَّذي يكونُ بالاستحالةِ، فقد جعلَهُ اللّٰهُ تعالى لغيرِهِ في بعضِ الأحوالِ كعيسى عليه السلام[3] وفرَّقَ الزمخشريُّ بين الجَعْل، والخَلْقِ بالقول: "إنَّ الخَلْقَ فيه معنى التَّقديرِ، وفي الجَعْلِ معنى التَّضمين، كإنشاءِ شيءٍ من شيءٍ، أو تصييرِ شيءٍ شيئًا، أو نقلِه من مكانٍ إلى مكانٍ"[4]. فالخَلْقُ معناهُ الإنْشاءُ والإيجادُ الابتدائيُّ مِنَ العدَمِ مِن غيرِ مِثالٍ سابقٍ، أمَّا الجَعْلُ؛ فيتضمَّنُ معنى تكوينِ شيءٍ من شيءٍ، أو مِن أشياءَ، أي: كونُهُ محصَّلًا مِن آخرَ كأنَّه في ضِمْنِه[5].

في الجَعْلِ معنَى التَّضمينِ والتَّحصيلِ، وفي الخَلْقِ معنَى التَّقديرِ والأوَّليَّةِ

وهنا يتبيَّنُ قَصْديَّةُ اختيارِ الجَعْلِ دونَ الخَلْقِ في الآية المباركة، فطلبُهُم بجعلِ إلهٍ لهم، إنَّما هو فعلٌ محصَّلٌ ممَّا شاهدوهُ مِنَ الآلهةِ الَّتي كانت تُعبَدُ أمامَهم، فهو إنشاءٌ مِن مثالٍ سابقٍ، وليس إبداعًا مِن غيرِ أصلٍ كما في الخَلْقِ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 136.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جعل).
(3) الرّاغب، المفردات: (خلق).
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/3.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 7/82، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/29.

العَمَلُ إيجادُ الأثَرِ في الشَّيءِ من غيرِ اقتضاءِ العِلْمِ بِهِ، والجَعْلُ تغييرٌ بأثَرٍ أو بغيرِه

فرَّقَ أبو هلالٍ العسكريِّ بَينَ العَمَلِ والجَعْلِ، فذهبَ إلى أنَّ العَمَلَ: هُوَ إيجادُ الأثرِ في الشَّيءِ من غيرِ علمٍ، والجَعْلُ تَغْيِيرٌ بإيجادِ الْأَثرِ فِيهِ وبِغَيْرِ ذَلِك. فالعَمَلُ لَا يَقْتَضِي الْعِلمَ بما يعمل لَهُ، والعَمَلُ يكون بمعنى الإحداثِ[1]؛ لأنَّه: إيجادُ الأثرِ في الشَّيءِ من غيرِ إحاطةٍ شاملةٍ، أو عِلْمٍ وافٍ بما سيؤولُ إليهِ حالُه مِنْ بَعْدُ. فهو: كلُّ فعلٍ يكونُ مِنَ الحيوانِ بقصدٍ، دونَ ما كان مِنَ الجمادِ، فهو أخصُّ مِنَ الفعلِ؛ لأنَّ الفعلَ قد يُنسبُ إلى الحيواناتِ الَّتي يقع منها فعلٌ بغيرِ قصدٍ، وقد يُنسب إلى الجماداتِ، والعَمَلُ قلَّما يُنسَبُ إلى ذلك[2].

ولمّا كان قَصْدُ بني إسرائيل إحداثَ إلهٍ من الموجوداتِ سواءٌ كانت حجرًا، أو معدِنًا بأنواعِه، وتغييرُها بإيجادِ أثرٍ لها عن علمٍ بما سيؤولُ إليهِ حالُها فيما بعدُ بوصفِها ستُعْبَدُ مِن دونِ اللّهِ، كان العدولُ إلى اختيارِهِ في سياقِ الآيةِ أنسبَ من لفظِ: (اعْمَلْ) الَّذي يحملُ مدلولَ عدمِ العلمِ، أو الإحاطةِ بما سَيؤولُ إليهِ الشَّيءُ قبلَ فِعلِهِ.

شَرْطُ الصَّنْعِ الإجادةُ، وليس في الجَعْلِ ذلك

الصَّنْعُ: إجادةُ الفعلِ، ولا يُنسَبُ إلى الحيوانات والجمادات، كما يُنْسَبُ إليها الفعلُ، ولذلك يقالُ للحاذقِ المجيد: صَنَعٌ؛ لإجادتِه[3]، فهو مضمَّنٌ بالجَودَةِ، وهو: تَرْتِيبُ العَمَلِ وإحكامُهُ على مَا تقدَّمَ مِن علمٍ بِهِ[4].

والعدولُ عَنِ اختيارِهِ في الآيةِ الكريمةِ لكونِ موسى عليه السلام ليس ممَّن يُجيدُ صُنْعَ ما طلبوهُ منه حاشاهُ من ذلك، فضلًا عن أنَّهم إنَّما كان همُّهم لحظتها تقليدَ فعلِ القومِ العابدينَ للآلهةِ بأنْ يجعلَ لهم إلهًا شبيهًا بآلهتِهم مِن غيرِ تفكيرٍ بإجادةِ صُنعِه، فذلك مَطلبٌ يُعرقِل غايتَهم.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 135.
(2) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(3) الرّاغب، المفردات: (صنع).
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 135.

الـفـعـلُ لـفـظٌ عـــــامٌّ، وفي طلَبِهم قَصْدٌ، وخُصوصِيَّةٌ

الفعلُ: هو التَّأثيرُ من جهةِ مؤثِّرٍ، وهو عامٌّ لِمَا كان بإجادةٍ أو غيرِ إجادةٍ، ولِمَا كان بعلم أو غيرِ علمٍ، وقَصْدٍ أو غيرِ قَصْدٍ، ولِمَا كان مِنَ الإنسان والحيوان والجَمادات[1].

وعُمُومُهُ يُخْرِجُهُ مِنْ قصديَّةِ التَّعْبِيْرِ بِهِ عن طلبِ بني إسرائيلَ وخصوصيَّةِ طلبِهم، فضلًا عن عدم تضمُّنِه معنى الإيجادِ، والتَّنْشِئَةِ، والإقامةِ (النَّصب) التي يتضمَّنُهما لفظُ الجَعْلِ.

مِـــلاكُ أمْـــرِ الإنشاءِ التَّدرُّجُ، ولـيـس ذلـك في الجَعْلِ

الإنشاءُ: إحداثُ الشَّيءِ وإيجادُهُ وتربيتُهُ[2] شيئًا فشيئًا، حتّى يستويَ على سُوقِهِ، فملاكُ معناهُ التَّدرُّجُ بَدْءًا، وانتهاءً، وهو معنًى غيرُ واردٍ في شأن إقامةِ الإلهِ الَّذي طلبَهُ بنو إسرائيلَ، ولذلك عُدِلَ عنْهُ.

نَخْلُصُ إذًا ممَّا تقدَّمَ عَرْضُهُ مِن مَعانٍ للألفاظ المشابهَةِ للفظةِ الجَعْلِ إلى قَصْديَّةِ اختيارها في الآية الكريمة، والعدولِ عن مُشابهَاتها بوصفِ الجَعْل إحداثًا، أو تَغْييرًا بإيجادِ الْأَثَرِ في الشَّيء وبغَيْر ذَلِك، وإنشاءَ هَيْئَةٍ جَديدةٍ، فهو إيجادٌ يتأتَّى منه النَّصْبُ (الإقامة)، وهو مطابقٌ لمرادِ بني إسرائيلَ مِن عملِ الإلهِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (فعل).
(2) الرّاغب، المفردات: (عمل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 14 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-10-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 14 : المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-10-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0402725 بتاريخ 2023/12/30م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»